الكِبْرُ والتَّكَبُّرُ

قال ابن تيمية -رحمه الله-:

«الكبر ينافي حقيقة العبوديَّة، كما ثبت في "الصَّحيح" عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «يقول الله: العظَمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذَّبته». فالعظمة والكبرياء من خصائص الرُّبوبيَّة، والكبرياء أعلى من العظمة؛ ولهٰذا جعلها بمنزلة الرِّداء، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار».

ليسأل الإنسان نفسه: هل أنا متكبر؟ فيفتش في نفسه وهديه، وينظر في مرآته الناصحة: «المُؤْمِنُ مَرْآةُ أخِيهِ»؛ فيعرف عيبه ويطهِّر نفسه، فيسلم من داء الكبر والتعالي والنقص.

وقد بيَّن لنا النبي ﷺ معنى الكبر بقوله: «بَطَرُ الحق، وغَمْطُ الناس»؛ فالكبر: رد الحق، وغَمط الناس: أي احتقار الناس والاستخفاف بهم وانتقاصهم. فمن معاني الكبر: استعظام الإنسان نفسه ورأيه ومعرفته وفهمه على غيره، ورد الحق، وانتقاص الغير.

وداء الكبر مرضٌ قلبيٌّ بالغ يَرِدُ على الغني والفقير، والقوي والضعيف، والرفيع والوضيع، والعالم والجاهل. قال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا

يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، فالعائل المتكبر الشامخ المزهو بنفسه هو الفقير المتكبر، ليس عنده ما يدعوه إلى التكبر ومع هٰذا هو مريض بداء الكبر! كما قال النووي -رحمه الله- في "شرح مسلم": «العائل: الفقير قد عدم المال، وإنما سبب الفخر والخيلاء والتكبر والارتفاع على القرناء: الثروة في الدنيا؛ لكونه ظاهرًا فيها، وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويحتقر غيره؟!».

وقال ابن باز -رحمه الله-: «التكبر محرَّم من الغني والفقير، لكنه من الفقير أشد؛ لقلة الدواعي، وضعف الدواعي». أي أن دواعي مرض داء الكبر؛ كالمال والثروة والمكانة الاجتماعية والنفوذ، ليس عند الفقير المتكبر العائل شيء منها، فعلام يتكبر؟!

ولا يعني ذٰلك أن من كان عنده الثروة والقوة والمكانة جاز له أن يتكبر! لا، ولو كان عنده من الله ما ليس عند كل البشر. فإن داء الكبر من سخط الله، ومعصية كبيرة عظيمة، وقُبْح شنيع، وهو داء عضال يقلب الحق إلى باطل، والباطل إلى حق. فالمتكبر إنسانٌ عاتٍ، قاسٍ، غَضِب، متقلِّب، فظٌّ، صعب العِشرة، قَلِق، بَاغٍ، يَشكّ بكل أحد. والذي يدفعه للكبر والبغي: فجور النفس، وحظوظ النفس، تدفع به للكبر والترفُّع والبغي.

وقد توَعَّد خالقُ الخلقِ العبدَ المتكبرَ بسوء العاقبة، كما أخبرنا النبي ﷺ: «يُحشَرُ المتَكَبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجالِ، يغشاهمُ الذُّلُّ من كلِّ مَكانٍ، يُساقونَ إلى سجنٍ في جَهَنَّمَ

يسمَّى: بُولَسَ، تعلوهُم نارُ الأَنْيارِ، يُسقونَ من عُصارةِ أَهْلِ النَّارِ؛ طينةِ الخَبالِ».

ومن جناية الكبر على الإنسان أن الكبر يَذْهَبُ بنورِ العلم عن صاحبه، قال الشاعر:

كَمْ جاهِلٍ مُتَواضِعٍ سَتَرَ التَّواضُعُ جَهْلَهُ

وَمُمَيَّزٍ في عِلْمِهِ هَدَمَ التَّكَبُّرُ فَضْلَهُ

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: «إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ... الْهَوَى فِيهِ قَائِدٌ لِلْعَمَلِ، اعْلَمُوا أَنَّ حُسْنَ الْهَدْيِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خيرٌ مِنْ بعض العمل».

وقال البيهقي: سَمِعْتُ أبا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ السُّلَمِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الفَرّاءَ، يَقُولُ:

قِيلَ لِحَمْدُونَ القَصّارِ: ما بالُ كَلامِ السَّلَفِ أَنْفَعُ مِن كَلامِنا؟

قالَ: «لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا لِعِزِّ الإِسْلامِ ونَجاةِ النُّفُوسِ ورِضا الرَّحْمٰنِ، ونَحْنُ نَتَكَلَّمُ لِعِزَّةِ النَّفْسِ وطَلَبِ الدُّنْيا وقَبُولِ الخَلْقِ».

كتبه

الشيخ محمد عثمان العنجري

السبت ١١ صفر ١٤٤٣هـ

الموافق ١٨ سبتمبر

٢٠٢١م